

القصص

بقلم : الدكتور احمد كمال زكي

قصة اليوم وفيما تختلف عن قصة الأمس ، مشكلة تحتاج إلى مناقشات قد لا تنتهي ، إلا أننا لا نخطئ إذا قلنا أنها الفن ذو البنية المطاطة والشكل الفضفاض . ولقد يمكن في هذه الحال أن نرصد لبعض ملحوظات ربما تبدو من النوافل شيئاً ، ولكنها تؤكد أن القصص - على توالي الأيام - كان يسجل روح العصر دائماً . فهو في القرن التاسع عشر نشر منظم مرتبط بمنطق الزمن ، وهو قبل ذلك سرد لا بأس من أن يستمد الأسطورة ويسترفد للمحمة ، وفي القرن العشرين طاقة احتجاج تشبه إلى حد ما غنائية القصيدة .

إن القاص المعاصر يريد أن يكشف عن الإنسان العادي في حياته العادية .. لا الإنسان الفيكتوري المتمزج ، ولا الإنسان الخارق الذي يحقق كل شيء ! هو لا يقنع بمنطق روبنسون كروزو ، ولا يرضيه أسلوب بيكوك في الحياة ، ويكره أن يستقصي حقائق الوجود مما يستقي منه جان فالجان أو باردليان أو روبن هود .

حقاً كانت القصة الواقعية هي التعبير المباشر عن حاجات ما قبل اليوم ، غير أنه كان مجرد تعبير .. تسجيل لما ترى العين وما تسمع الأذن في أناة واستقصاء ، بحيث يصبح العطاء الأدبي كمادة للمعرفة حقائق صغيرة جزئية . أما قصة اليوم ، فهي قصة الكشف النفسي والذهني في أثناء تقديم الاحتجاج ! فعل ذلك كثيرون منهم كامو في « السقطلة » ومنهم نجيب محفوظ وغسان كنفاني ، فازيحت السطر عن أعماق إنسانية فيها من الخصب ما يعادل عقم شارلوت الوديعسة عند غوته في « آلام فرتر » وشارلوت الشرسة عند ديكنز في « أوليفر تويست » ومدام بوفاري - على سبيل المثال - مع أنها طالما اتخذت نموذجاً للدقة والاستشراف .

أنا لا أوازن ولا أعلن تحيزي لأي نمط من أنماط القصة ، ولكنني أقر أن « حاجات » العصر فرضت قيماً جديدة على عمليات السرد التقليدية . فأصبحت بنية القصة بعيدة عن النموذج القديم بما فيه أطراد نحو نهاية بعينها ، وارتبطت بدفقات اللاوعي وهي في سبيل التخلي عن الوصف الخارجي المملول .

يظهر ذلك في الرواية ، وفي الرواية القصيرة ، وفي الأقصوصة أو القصة القصيرة على حد سواء . ويكون محك قبولها أنها لا تحيد عن الصدق في تصوير روح القلق - وهو مرض العصر - تماماً كما ترصد لايقاع الهدوء ، ثمّة الشك واليقين ، وثمة التآرجح بين المعرفة والجهل ، وثمة لحظات التوتر بين أسباب الحياة وأسباب نقيضها وهو الموت .

في حدود هذا الفهم العام للعمل القصصي قرأت في « آداب » ديسمبر الماضي آثاراً تدريس الشرايبي ، وعبد الرحمن الربيعي ، ومحمد عبد الولي ،

وعبد الأمير الأعسم ، وحسين قاسم .. أقاصيص خمساً لم يكن وقعها في نفسي واحداً ، ولكنني حرصت على أن أقيسها بما لا يخضعها تماماً لتصور العام للقصة القصيرة في إطارها الجديد . ولقد كان الانفلات من هذا التصور صعباً عليّ حقاً ، إلا أنني راودت نفسي على أن أزعج أن الكتاب - وهم أهواء شتى - لا يمكن أن يلتقوا على الصعيد الذي أريد ، ومن ثم ينبغي أن تكون لهم أساليبهم في الانفعال والتصوير .

ولكنني مع ذلك لا أظن أنني اغمط أي قاص منهم حقه إذا قلت أنهم - باستثناء واحد - لم يرتفعوا إلى مستوى قضية الإنسان المعاصر ، بل لعل بعضاً منهم لم يتصور ذاته - حتى في الأطوار الكلاسيكي - إلا في حالة شبقية تذكرنا بهذيان أحسان عبد القدوس . أنراني أتعجل ؟

اذن فليغفر القارئ هذا التعجل ، على أن يكون شفعي عنده احساس الالم الممض . أفليس عجيباً أن يظل أكثرنا على أول السدرب في حين قطع الشوط - أو كاد - قلة قليلة ؟

قصتان من العراق :

« الوكر » للقصص عبد الرحمن الربيعي ، و « الشبح والزيف » لعبد الأمير الأعسم .. مناجاة جنسية يتخللها تيه الذات ، وإن نمت الثانية عن اعتدال ! وكان نصيب الحرمان والسقوط لا يختلف فسي كليهما ، فالربيعي يجعل بطله مهتماً بجائناً ويرشق صاحبتة سلمى في قمة بعيدة بعيدة ، والأعسم يصور طبيبه ضائعاً لأنه لا يجد المرأة التي كان من الممكن أن يراها في « نعيمة » رفيقة صباه .

والربيعي يسطو على سلمى في جرة دون جوان أو يجعلها تسقط أمامه ، والأعسم يرى نعيمة ساقطة فعلاً تباع جسدها في أحد ملاهي الليل ، والاثنان معا يكتبان مدفوعين باحساس المراهقين . وعلى الرغم من أن قصتهما قد تدلان على فنانين واعددين ، فإن اجتراحهما مغامرات نسائية - بلا أبعاد إنسانية - قد قعد بهما عن تحقيق أي شيء ينبغي أن يتحقق في الأدب الرفيع .

وليس من ريب في أن كثيرين قد يجدون تفسيرات ما للقصتين ، وربما برز منهم نفر يزعم أن الجنس ارهاص بيعت والبعث يشكل مع الموت قضية العصر ، بل لعل ثمة من يرتفع بهما على أساس أن الحياة نفسها فيها ذلك الطموح الشبقي يلزم البشرية إلى الأبد .. ولكن أحداً من أولاد لا ينكر أنهما لا تنتميان حقيقة إلى واقع العراق !

أنني اعترف دائماً بأن هناك من الأعمال الأدبية الناجحة ما لا يرتبط بقضية ما ، غير أن هذه تختلف كل الاختلاف عن الأنماط المتبدلة التي دارت ودارت حتى استهلك ، ومن هذا المستهلك قصة « الوكر » وقصة « الشبح والزيف » . ولست أدري كيف غاب عن صاحبيهما أن المرأة أسمى مما تبدو للمراهقين ، وأن العواطف التي تثيرها لا يكون الجنس محوراً دائماً ، فضلاً عن أن قيام العواطف بينها وبين الرجل أمر تقرره الطبيعة ويعترف به المجتمع .

واذن فلم يكن من المفروض أن يدور بطل الوكر في فلك دون جوان

وبقترض فحولته ، ليدمر تلك القاعدة الاجتماعية المقررة . كذلك لم يكن من المستحب ان يغيب عن الاعسم ان نساء الاسرار كن طابع عصر وانتهى ، وان نساء المفاجآت اصبحن لا يعشن الا فسي قصص الورداني وغراب .

قصة من لبنان :

أنا لا أعرف « حسين قاسم » ولم أقرأ له الا « غبار الدروب » قصة الرحلة الطويلة والبحث الطويل . ويبدو هذا القاص اللبناني من القلة التي تقارب روح العصر ، ولكنه لا يحسن تماما بلورة احساسه الدرامي . هو قد يغير صوته ، وقد يراوح بين ذبذباته ، وقد ينتقل مع الاصداء من الخوف الى الطمع الى الرجاء الى القلق ثم الى اليأس . هو قد يفعل ذلك ، ولكنه يفقد دائما الرباط الذي يجمع كل هذه الاشياء ليجعل منها وثيقة ادانة للمجتمع .

ونحن نرى عنده التاجر الفلاس الذي يترك سانتو انجلو الى سان بورجا ثم يعبر الحدود الى سانت تومي بالارجنتين لكي يبيع في الزحام وهو يلتمس أول ربح . نراه عنده فنحس انه يرسم به صورة تمثل معادلا لدأب انسان العصر ، لا لان الطريق واحدة ، ولا لان الخاتمة مماثلة ، بل لان ما يسود هو القلق .

وهنا ترتبط في ذهن حسين قاسم تفصيلات القضية وان تكن غائمة . فالتاجر غريب وأهله يريسدون عطاء في الوطن ، وهو يقترب ويقتصد ويريد ان ينضم الى زمرة المهجرين ، ويجوع ، ويشتهي ، وتؤرقه ذكرى ، وتثيره أغنية ، ويرهقه الماضي بكل أثقاله . وعندما يظن انه على وشك التخلص من عذاباته ، يتبين فجأة انه لا يزال عند النقطة التي بدأ منها رحلته . وهذه هي رحلة انسان العصر على الحقيقة ، حركة في لا زمان . حركة جامدة ان صح هذا التعبير ! ولقد تناولت الاعمال الادبية الحديثة هذا الموضوع ، واستعانت عليه بأساطير القدماء ، ثم قدمته دراما تحلل ألوان الصراع من اجل التمسك بالحياة . وأما حسين قاسم فقد اكتفى بتسجيل توتراته ، في بساطة وصفاء ، وفي نجوة عن الفوص الى اللاوعي . غير اني لست أدري هل تراه كان يفصل غير ذلك اذا امتد به نسيج القصة اكثر مما امتد ؟

قصة من اليمن :

جميل جدا ان أقرأ قصة من اليمن ، وأجمل من ذلك ان يكون اهتمام كاتبها متجها الى قضية الموت كمقابل للبعث او للقوى التي تشكل اسباب البقاء . والقصة بعنوان « موت انسان » بدأها محمد عبد الولي بملاحظة ان المجتمع يجب ان يتحرك . حتى في شكل طاحونة او في رغبة عارمة للقات ! ولكن يحدث ان تبرز مشكلة كمسألة مرض « ابن الحاج » المشلول ، فيجد المجتمع نفسه مسوقا الى التوقف

بعض الشيء ، بل يصيح التوقف أمرا لا بد منه حين يموت المريض . في هذه اللحظة يظهر ابناء المجتمع لا آدميين . فعيد الرحمن يتردد بين الزيارة للعزاء والرجوع الى بيته ، وشاهر مشغول بأولاد اخيه ، والفقيه المفلس وراء الجبل في أرضه ، وبائعو القات يروحون ويجيئون ، والكفن مع ذلك يعد ، والقبر يحفر ، والمحمل على الساب في انتظار .

وتتخذ الحركات العادية صورة اللعن احيانا والترحم احيانا اخرى ، ولكن الاحساس في كل الاحيان احساس بارد بالموت كحقيقة قائمة ويجب ان تقوم . وينتهي الامر بانهيأ انساني ، لكنه يرضي حاجة الحي الى الحركة والى ان يفكر في كل شيء حتى في القات يبتاع على رأس الميت .

اذن فموت الانسان عند محمد عبد الولي لا يمكن ان يكون نهاية حياة وبالتالي لا يكون بداية حياة جديدة ، وانما هو امتداد للحياة نفسها . فالطاحونة مثلا التي تتوقف لن تتوقف الا ريثما يقدم صاحبها العزاء ، والفقيه لم يأت من وراء الجبل الا ليعود اليه يعمل ، والشيوخ الذين لعن المزين لانهم يتعاونون القات ابتاع مثلهم ليتحرك او ليباشر حركته التي توقفت عندما توقف نفس ابن الحاج .

لقد رفض محمد عبد الولي ان يكون الجمود هو مبدأ الوجود ، كما سخر من الفكرة التي تقرر انه يمكن اخذ الانسان بقوانين ثابتة لا تتغير ، والا كان على أهل الميت مثلا ان يقيموا « ليلة الذكر » ذابحين الفئمة او على اصحاب المريض - قبل ان يموت - ان يعودوه في كل وقت ك « أيام زمان » .

ومع ذلك فليست القصة كاملة الاستواء ، وأحسبها تستوي لو كانت خلصت من الفضول . كوصف شاهر الجسماني ، وكاستهلال القصة نفسه ، وما يشوب السرد احيانا من تقريرية ، بالاضافة الى افحام كلمات للمسيح بلا أية ضرورة ماسة .

قصة من الجزائر

ترجمها عن الفرنسية جـورج سالم ، ومؤلفها عربي اسمه دريس الشرايبي ، فإين توضح ؟

الاجابة عسيرة من غير شك ، وهي تثير قضية الاداء اللغوي باعتباره أجناسا تدل على أجناس ، وتثير في الوقت نفسه أدب الدين يصدر عن قوالب فرنسية او انكليزية وهم زنوج مثلا او افريقيون او هنود . ولعلها لا تقف عند هذا الحد ، وانما تعيد النظر ثانية فيمن كتب بالعربية قديما - كابن المقفع - ولسانه فارسي وله آثار بالفارسية ويعتز به الفرس او الايرانيون المعاصرون .

أجل . ان الاجابة عسيرة ، ومن ثم تجاوزها حتى يتاح لاحد الدارسين ان يتعرض لها بالنظر الرشيد بعيدا عن الهوى ومخلصا للحقيقة وحدها .

صدر حديثا

تأليف
الدكتور عبد الجبار الجومرد

داهية العرب

ابو جعفر المنصور
مؤسس الدولة العباسية

دار الطليعة - بيروت ص. ب ١٨١٣

قريبا :

الحركة العربية الواحدة

بقلم

عبد الله الريماوي

تحليل علمي ثوري للواقع العربي والمعارضة العربية
بمنطق وحدة الهدف العربي بين المتناقضات والمصالح
والقوى المتصارعة في المعركة العربية في مرحلة التحول
الثوري العربي .

● يفضح الوجوه والواجهات الجديدة للتحالف
الاستعماري الصهيوني الرجعي واحتكارات البترول .

● يشرح الواقع الحزبي في الوطن العربي على صعيد
العقيدة والنضال والتنظيم في ضوء النشوء والتكوين
والمواقف والمسالك وبالنسبة للقضية والمركة ومهماتها .

● يؤكد ان الحركة العربية الواحدة هي الصيغة
الايجابية الثورية الوحيدة لوحدة النضال الجماهيري
العربي وانتصار الثورة العربية وانها التجسيد العقائدي
العلمي الصادق لوحدة الامة العربية وقوميتها .

لوحدة الثورة العربية وهدفها
لوحدة العقيدة العربية ومنطقها

هي ميلاد - بالثورة - جديد ، وليست تجميعا
بالالتقاء للقديم القائم .

هي تخط تطلبه وتحدد معالمه الثورة والعقيدة
والنخبة والجماهير :

للاحزاب والحركات والمنظمات القائمة في وجودها
ومقوماتها وفي تعدها وفي منطقها النابع من ذلك
الوجود والتعدد .

منشورات دار النشر للجامعيين

اما القصة التي تفري بكل هذا فيعنوان « منزل على شاطئ
البحر » وموضوعها هو الرحلة .. ولكنها رحلة وراء الراحة ، كأنها هي
نهاية المطاف بعد حياة دائبة أصابت الحواس بالوهن والاعياء .
وحتى نصل مع برتلمي - البطل المجوز - الى نهاية المطاف ..
على شاطئ بعيد هادئ في احدى الجزر ، نجد الخوف في مقابل
الرجاء مع رصد ذكي للمرور عبر الزمن . وبعبارة اخرى نقول ان الكاتب
بعد ان يلخص فكرة الحياة يستشعر قلق ان يدهمه الفناء قبل ان
يستمتع بفهم أعمق او بادراك للشيء الاخر الذي فيه . ومن ثم فهو
في حاجة الى ان يبدأ من جديد ، بشرط ان يكون وحيدا يستمع
الى الموسيقى وينظر الى البحر .

ونحن من قريب ان الاحساس بالنفي عنصر من عناصر المأساة
في القصة ، ولكنه النفي الذي يختاره كل شخص أهدر حيويته
الانسانية في لا شيء .

كم سنة قضاها برتلمي يعمل ؟
سنتون ؟

اذن فله ان يستريح ، وليبيع دكان عطارته ، وليقبض الثمن ،
وليستعد للطواف او للنفي ليستبدل بالحرمان حرمانا اخر وان يكن
المراء يتصور انه « يحصل على تقاعد بعد حياة كاملة من الحرمان » .
وقد بدأ من مونت كارلو باحثا عن صخرة يبنى عليها بيتا يتسع له
حتى يموت ، والتمس الصخرة في كل شاطئ من شواطئ البحر
المتوسط ، والتمسها أيضا على طول شواطئ الاطلس . وبعد ثلاثة
أعوام استعان بباخرة حملته الى بوجوانفيل عاصمة جزر يو ، وفي
جهة « بور - لا - مول » عثر على ضالته ولكن .. ولكنه لم يظفر
بما أحب ، فأثر من جديد ان يعود فيفتح دكان عطارة في منفاه
بالجزيرة .

لقد حسب لكل شيء حسابه ، غير انه تبين ان حالة السليبيه
التي ضيعت منه سنوات في « دراسة » حالات البحر بالنسبة لصخرته
التي اختارها ، لم يكن لها معنى الا ان تقفه على ان الحياة تقلب ..
مد وجزر ، ولا مكان لجمود الفارغين !

ان رحلة برتلمي اشبه ما تكون برحلة السندباد ، وضياعه كضياح
يوليسز على نحو ما .. وراء اي شيء ، ومن اجل ان يعرف حتى
لأنها المرء يشعر دائما ان ما نمي اليه قاصر كل القصور .

ودريس الشرايبي فيما يبدو من هذه القصة فنان يمزج عمله
بأكثر قضايا عصره الحيرة ، من خلال الذات وعن تقدير منطقته الوجداني .
ويمكن وصف طريقته كفاص بالطريقة الوجدانية ، فهو يقف عند المشكلة
- مشكلة الحياة كلها - ويسير بها عن طريق السرد والتداعي السي
حيث تفرض الحياة منطقها ، وفي اثناء ذلك يكون الاستكشاف المنشود .

انه لا يفرض فلسفة ، ولكنه يشير الى ان الانسان الذي يجد من
السهل جدا عليه ان يتقبل كل ما هو موجود STATUS QUO
يثور على هذا المنطق العجيب ، ويصل الى النقطة التي تجمعه بواحد
مثل كامو : ما هذا العالم ، وكيف يؤكد الانسان وجوده فيه ؟

ويظل السؤال دون اجابة ، غير اننا نلاحظ ان معظم القيم تضع
عنده ، وان تظل قيمة واحدة باقية هي الحذر . بمعنى اننا يجب ان
نحذر في معاناتنا ، وفي دأبنا ، وفي رغبتنا ان نستمر الى الابد .

ان الشرايبي الذي سجل رحلة النفي ببراعة في قصته هذه ،
ليقف في مقدمة كاتبي القصة في العدد الثاني عشر لعام ١٩٦٣ المنصرم
من مجلة الاداب ، بل لعله ان يكون في مقدمة من نقرأ لهم في أغلب
الكتب الادبية والمجلات .

احمد كمال زكي

القاهرة